

الفصل العاشر

اليهودية في الحبشة وأديان أخرى

(١) يهود الحبشة :

في الحبشة يهود سود ، يسمون الفلاشة^(١) ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة الحبشية «فلاي» ومعناها منقأ أو غريب ، وينتسب الفلاشة إلى بني إسرائيل ، ولا ينازعهم في هذه النسبة أحد من الحبشان .

ولا يعرف تاريخ مجيئهم من فلسطين إلى الحبشة ، على وجه التحقيق ، ويؤمن الفلاشة أنفسهم ، أنهم جاءوا في عهد الملكة مكدا ملكة سبأ ، المشهورة ببلقيس . والتي جاء ذكرها في التوراة والقرآن ، وكانت بلقيس في رواية الكتب المقدسة ، معاصرة لسليمان بن داوود ، فحجى لسليمان بنبتها ، وخبر ملكها العريض . وعرشها الفاخر ، وقومها الذين يعبدون الشمس ، فكتب إليها أن تترك عبادة الأوثان ، وتعبد الله مخلصاً ، والأتعلو عليه ، وأن تأتيه وقومها مسلمين .

فلما جاء بلقيس كتاب سليمان ، جمعت قواد جيشها ووزرائها ، ليفتوها في أمرها وكان نقاش وجدل ، جنحت فيهما بلقيس شأن كل امرأة ، إلى السلم ؛ وجنح وزراءها وقوادها إلى الحرب ، وقال قائلهم : « نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر لك ، فانظري ماذا تأمرين .

(١) يرى بعض العلماء الباحثين أن الفلاشة ليسوا من بني إسرائيل وإن كانوا يهوداً ، وأنهم ليسوا بساحين ، ولكن يمتون إلى المصريين القدماء والبربر بصلات ، وآية ذلك أنهم لا يتكلمون العبرية ولا يعرفون التلمود .

قالت بلقيس إن الحرب مهلكة للحرث والنسل ، مدمرة للمدن ، ومعطلة للتجارة ، وإن الملوك إذا دخلوا قرية ، أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وإني مرسله لسليمان بهدية ، فناظره بم يرجع المرسلون .

فلما جاء سليمان ، قال « أتعبدونني بجمال ، فما آتاني الله خيراً مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود ، لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة ، وهم صاغرون » .

ولم يثر تهديد سليمان ووعيده بلقيس ، وتغلبت عليها طبيعة المرأة المسالمة ، وتناست إباءها ، وعصت نداء عزتها ، ونبذت مشورة قوادها . وطابت نفسها بالإذهان لسليمان .

وسارت ملكة سبأ^(١) إلى دارة ملك سليمان ، مع بعض رؤساء دولتها . ودخلت بيت المقدس في موكب مهيب ومعها جمال محملة طيباً وذهباً وحجارة كريمة . فقابلها سليمان ، بكل حفاوة وتكريم . وأنزلها في قصر منيف .

وكانت بلقيس تحضر مجلس سليمان ، فتسمع الحكمة وفصل الخطاب ، فسحرت بسحر بيانه ، وصبثت إلى دينه ، ورغبت عن عبادة الشمس . وأسلمت لرب العالمين وتزوجها سليمان ، ومكثت معه ما شاء الله أن تمكث . ثم تآقت نفسها إلى وطنها

(١) يرى الحبشان ، ويوافقهم بعض العلماء أن سبأ كانت بلداً في الحبشة وأن بلقيس أو مكدة حبشية الأصل والمنبت ، ويخالفهم في هذا الرأي بعض العلماء ، الذين لا يستهان برأيهم ، ويرون أنها يمانية وأن سبأ في اليمن ، ويحتجون بأن بعض الهدايا التي حملتها بلقيس إلى سليمان لا توجد في الحبشة ، ولكنها توجد في اليمن .

والرأي الغالب الحديث أنها كانت ملكة لليمن والحبشة معاً ، وبذلك يصدق الرأيان لإقليلا . ويرى بعضهم أن بلقيس كانت ملكة لإحدى المدن التي أنشأها السبأيون في شمال الحجاز كركز للتجارة ويحتجون بأن الرواية تدل على صغر ملك بلقيس ، وبقربه من ملك سليمان ، انظر إلى تهديد سليمان فلنأتينهم بجنود ، لا قبل لهم بها . . هذا تهديد ملك لم يتجاوز ملكة فلسطين على الرغم من الروايات العربية المتواترة ، والإشارات الكثيرة الواردة في الأدب العربي التي تدل على عظم ملك سليمان .

وسار معها سليمان يودعها . وأسر إليها أنها إذا ولدت ذكراً ، ترسله إليه .

وولدت في الطريق ولداً أشبه الناس بأبيه سليمان .

ووصلت إلى مقر ملكها . وشب أبنها منليك ، وترعرع . ولما بلغ مبالغ الرجال

سافر إلى مقر ملك أبيه ، وأمه كارهة . وفرح به أبوه . وأراد أن يوليه الملك من بعده ،

فرفض في أدب ، وفضل أن يرجع إلى أمه ، وإلى البلاد التي تربى فيها ، ونشأ

على أديمها ، وشب بين أهلها .

ورأى سليمان صواب رأى ابنه ، فتوجه ملكاً على الحبشة في حفل كبير .

ووعظه كبير الكهنة ، وقال له : « سر يا بني على شريعة الله . واسلك السبيل القويم

واعمل بما أمر الله »

وأمر سليمان أن يرافق ابنه البكر ، أبناء بني إسرائيل الأبنكار ، ليكونوا له

عوناً وعضداً .

ووصل منليك إلى الحبشة^(٢) ، فقرحت به أمه وقومها ، وتنازلت له عن الملك .

فتوج ملكاً على أثيوبيا مرة أخرى وخاطبت الملكة بني إسرائيل فقالت لهم

« حافظوا على ولدي ، وعلموه محبة الله . »

فأحابوها قائلين : « أنت ملكتنا ومن أجلك . . . أتينا لنقيم هنا . »

فقالت لهم الملكة « أنتم إخواننا ، ورؤساء الشريعة ، علموا شعبي

الدين والحكمة » .

واتخذ بنو إسرائيل ، رفقاء منليك ، الحبشة موطناً ، واتخذوا من فتياتها

زوجات ، وانتشرت اليهودية فيها على أيديهم ، وأقيمت البيع في إنحائها ، وطبقت

القوانين الموسوية في الفصل بين أهلها .

(١) في رواية أخرى أن بني إسرائيل رفضوا أن يملكهم ابن السوداء .

(٢) انظر قصة منليك ، وحادث سرقته تابوت العهد في تاريخ الحبشة .

وعاش منليك بن سليمان ، ما شاء الله له أن يعيش ملكا على الحبشة ، ولما مات خلفه ملك من آله . وما زال الملك في بيته ، كما يزعم الحبشان — إلى وقتنا هذا . وفي القرن الرابع ، تنصر الحبشان والأسرة المالكة — كما قدمنا — وتمسك بنو إسرائيل بدينهم ، فلقوا بعض الاضطهاد والعنت ، فهاجروا إلى سهل تشلجا ودنبعة^(١) وعاشوا فيها زمنا . ثم ضيق عليهم الخناق ، فاعتصموا بجبال سمين وبلسا (Semien & Bellesa) وجعلوها موثلا لهم . وحكمهم ملوك من أنفسهم . وفي سنة ٩٦٠ م قادتهم ملكتهم جوديت ضد الحبشان فهزمتهم شر هزيمة ، وقتلت منهم خلقا كثيرا ، وحاصرت الأسرة المالكة في قلاعهم (Ambas) ، وذبحت أفرادها لم تبق على أحد منهم . وحكم الفلاشة الحبشة أربعين سنة . وكان يسود حكمهم العسف والظلم والخراب والدماء والدمار .

وفي أوائل القرن السابع عشر ، هاجمهم الأمهريون واستولوا على حصونهم ومعاقلمهم ، فتفرقوا ، وانتشروا في كثير من الأقطار الحبشية ، كما شاء لهم قاهروهم . ويقوم عدد كبير منهم الآن في سهل دنبعة ، وفي قارا ووجارا ، وتشلجا ، وجوجام حيث يعرفون ببيعهم .

ويباهى الفلاشة بأنسابهم ، ويفخرون بأجدادهم ، إبراهيم وإسحق ويعقوب . ويأبون كل الإباء أن يزوجوا بناتهم من الحبشان المسيحيين ويندر أن يتزوجوا من فتيات حبشيات .

ويتمسك الفلاشة رجالا ونساء بأهداب الفضيلة ، وقل أن يجيد أحدهم عن الطريق

(١) لقد يسر عملها الوحشي إقامة جميع أفراد الأسرة المالكة في قلعة (Amba) في دير دامو ، وهو تقليد قديم ، لا يعرف كيف نشأ ، ولا متى بدأ ، ويزعم بعض الحبشان أنه بدأ في عهد الملكة بلغيس (مكددا) ويزعم البعض الآخر أنه بدأ في عهد أول مسيحي الملك ايزانس (Aeiganes)

القويم . ويحافظون على شعائر دينهم ، وبخاصة حرمة السبت ، الذي يبدأ الاستعداد له من ظهر يوم الجمعة ، فيذهب كل من لا يقعه المرض إلى الأنهار فيغتسلون ، ويلبسون لباساً جديداً ، ثم ينتشرون في الحقول ، وسفوح الجبال حتى الغروب . فيذهبون إلى البيع ، حيث يصلون ويرتلون ويستمعون العظات وقصص الأنبياء ، ويبقون فيها إلى ساعة متأخرة من الليل .

وفي الصباح ينسلون إلى البيع للصلاة . وإذا ما قضيت الصلاة ، رجعوا إلى منازلهم ، حيث يتناولون طعام الغداء ، ثم ينامون ، أو يجتمعون زمراً ليسمروا . والفلاشة مجدون في أعمالهم . ويحسنون ما يعملون . فهم أمهر زراع الحبشة ، وأربع صناعات ، وبخاصة صناعة الحديد . ويختلفون عن يهود الأقطار الأخرى في أنهم يحتقرون التجارة .

ولقد دفعهم الاضطاد إلى التعصب المقوت ، وإلى كره كل من ينتمى إلى غير دينهم . كما دعا كثيراً منهم إلى الفرار بأنفسهم إلى رهوس الجبال ، وجزائر البحيرات ليكونوا نساكاً ورهباناً . ويزهد بعضهم في الدنيا ويعمد إلى التخلص منها بالتردى في الأخاديد السحيقة أو الإلقاء بأنفسهم من أعلى قلل الجبال .

ويروى عن أحدهم أنه رمى بنفسه إلى واد عميق ينفى الانتحار ، فنزل في ماء النهر ، فكتب الله له السلامة . فلما خرج من الماء ، أخذ ينوح ويعول ، زاعماً أنه ليس أهلاً للقاء ربه .

ومنهم من ينذر للرحمن صوم الأبد ، أو ألا يكلم أحداً .

ويعرف الفلاشة باعتدال قاماتهم ، وبأن عيونهم أصغر من عيون الحبشان الأصليين وأشد منها سواداً ، وبأن ألوانهم أميل للبياض من ألوان الحبشان .

ويبغض الحبشان الفلاشة ، ولا يثقون بهم ، ولا يستريحون لقربهم ، ويرهبون جانبهم لاعتقادهم أنهم سحرة ماهرون ، في قدرتهم تحويل أنفسهم ضبعاناً وذئباناً .

وفي الحبشة طوائف تدين بأديان أخرى ، نكتفى بذكر طرف من أخبار بعضها .
(ب) الكمانت :

تسكن في مقاطعة تشاجا طائفة من الحبشان يسمون كمانت ، يعتقدون في كائن أعلى ، وفي حياة آخرة . ولهم قسيسون يبصرونهم بأمر دينهم . ويذهبون في أوقات معلومة إلى صخور معروفة لهم ، يتعبدون أمامها بعبارات سرية ، غير معروفة لأحد غيرهم . ويعرفون اللغة الأمهرية ، ويكلمون بها الحبشان ، وتجار العرب . ولكنهم إذا خلوا إلى أنفسهم تكلموا بلغة الفلاشة . ويعتقد البعض أنهم من أصل يهودي ، لما في وجههم من ملامح شديدة الشبه بلامح يهود الحبشة .

ويزعم الحبشان أن السبب في تسميتهم ، كمانت ، هو أن أحد ملوك تيجرى غزا سمين وأمهرا بعد تنصره . فوجد قوماً ، ليسوا بعباد أوثان ، ولا بمسحيين . فسألهم ماذا تعبدون ؟

فقالوا له بلغتهم كما أنت . أى تعبد ما تعبد . ولذلك سموا كمانت .
ويشتغل بعض الكمانت بالزراعة ، وبعضهم يرعى المواشى . وهم نشيطون ، وأهل جد وعمل .

(ج) الوثنيون :

وفي بعض أطراف الحبشة ، قبائل تعتقد في السحر ، لهم كهان يأتون بهم . أكبرهم ، وأعلام مقاما ، وأكثرهم احتراماً منزل الغيث (أى المطر) .
ويقوم منزل الغيث ، عادة مع أسرته ، بمعزل عن قومه ، على قمة تل أو جبل . ويحمل إليه أتباعه ما يحتاج إليه من ملابس وفاكهة . ويزرعون له حقله . ويطلق عليه أتباعه هذا الاسم لاعتقادهم أنه قادر على أن ينزل المطر متى شاء ، وأنى شاء ، ويطرد الجراد إذا أغار على زروع قومه .

وإذا ما خيب منزل الغيث هذا ، ظن قومه ، بأن احتبس عنهم المطر ، أو أتى

الجراد على زرعهم ، غضبوا عليه ، وتنكروا له ، وهاجموه ، ورجوه بالحجارة حتى يموت .

ومن عاداتهم المرعية ، أن يبدأ بالحصب أقرب الناس إليه . ويختلفه عادة أخوه ، إذا كان له أخ . وإن لم يكن له أخ ، فإن أخته .

وعلى ذكر منزل الغيث ، فإن كثيراً من الذين يدعون المسيحية أو الإسلام في الحبشة ، لا يزالون متمسكين ببعض الشعائر الوثنية بشأن إنزال المطر . ولنضرب لذلك مثلاً بأهل إجليو المسيحيين ، فإنهم كانوا يخرجون في شهر يناير من كل سنة إلى الخلاء ، شاكي السلاح ، فيقتتلون قتالاً شديداً ، تسيل فيه الدماء . وقد تزهق فيه الأرواح . وذلك استدراًراً للمطر . وكان يستمر القتال في الزمن السالف أسبوعاً كاملاً .

ولقد هم الإمبراطور منليك الثاني بإبطال هذه العادة ، فأصدر أمره بمنعها . ومن أغرب المصادفات أن المطر ، في تلك السنة ، كان قليلاً جداً . فذوى الزرع ، وجف الضرع . فاضطر لإباحة القتال ؛ ولكنه قصره على يومين اثنين ، بدل أسبوع كامل .

ولا نعلم هل لا يزال هذا التقليد متبعاً ، أم عفت عليه المدنية بأذيالها . ويعبد كثير من القبائل الوثنية السماء ، أو إله السماء . ويتقربون إليها زلفى ، بنحر أنواع من الحيوان ، على رؤوس الجبال . ويقدمون الشمس ، لاعتقادهم أنها عين إله السماء . ويصدقون حلول عدد من الأرواح في الأنهار والأشجار ، فيتملقونها بتقديم النذور لها .